التلقي الفلسفي والنقدي لخطاب ما بعد الحداثة في النقد الجزائري المعاصر عند محمد شوقي الزين.

The Philosophical and Critical Reception of the Postmodern Discourse Contemporary Algerian Criticism by Mohammed Chaouki Zine Dine

حليمة هبري [1] * / حمزة بسو [2]
Halima habri[1] / Hamza bessou[2]
مخبر المثاقفة العربية في الأدب ونقده.
جامعة محمد لمين دباغين سطيف02 (الجزائر)
University of Mohamed Lamine Debaghine Setif 02 (Algeria)
ha.habri@univ-setif2.dz [1] / h.bessou@univ-setif2.dz [2]

تاريخ الإرسال: 2024/03/21	تاريخ القبول: 2024/04/07	تاريخ النشر: 2024/06/02

ملخص البحث

تتخيّر الدراسة الرحيل إلى تضاريس خطابات ما بعد الحداثة في النقد الجزائري المعاصر، وذلك عن طريق تفعيل المقاربة الأركيولوجية، من أجل رصد الخلفيات المعرفية المساهمة في تلقي العقل النقدي الجزائري لخطاب ما بعد الحداثة، وكيفية الاشتغال على نظرياتها وآلياتها النقدية- الفلسفية بفكر حواري نقدي. بقراءة مباحث الفيلسوف الناقد "محمد شوقي الزين"، والتعرض إلى مفاهيم "الإزاحة" و"العقل المضاد" المستثمرة داخل تضاعيف نصوصه النازحة إلى أكوان التأويل والتفكيك المطعّمة بالقراءات الحصيفة لمتون التصوف الكبرى -نسبة إلى ابن عربي- بفيض عرفاني ورؤية فاحصة لأبعاد الحداثة التأويلية.

الكلمات المفتاحية: ما بعد الحداثة، الحوار النقدي، الإزاحة، العقل المضاد، الحداثة التأويلية.

Abstract :

The study envisages a departure to the terrain of postmodern discourses in contemporary Algerian criticism, by activating the archaeological approach in order to monitor the receipt of the Algerian critical mind of postmodern discourse, and how to work on its theories and critical - philosophical mechanisms with critical dialogical thought, by reading the research of the philosopher critic "Mohammed Shaouki –Zine", and exposure to the concepts of "displacement" and"counter - mind" invested in the multiplication of his

* حليمة هبري: ha.habri@univ-setif2.dz

displaced texts into the universes of interpretation and deconstruction grafted the wise readings of the Grand Master of Sufism-relative to Ibn Arabi-with a profuse Erfani and a close vision of the dimensions of hermeneutical modernity.

Keywords: Postmodernism, critical dialogue, displacement, countermind, hermeneutical modernity.

المقدمة :

تنخرط طبيعة العقل الغربي في مدارات التحوّل المستمر؛ فمن إرساء العقل الأداتي والمعرفة التجريبية وتأسيس براديغم لغوي تتقاطع معالمه مع ما أفرزته موجة الحداثة، -من فلسفة عقلانية سيطرت مقولاتها على الذات الإنسانية لتكون حبيسة لها-، إلى سقوطه في متاه العدمية بانعراج المسار الحداثي إلى المنجز الما بعد الحداثي. وبطبيعة الحال فإنَّ هذه التحوّلات الفكريّة خصّبت من أقاليمه الفلسفيّة والنقديّة، وأثارت عدّة قضايا جديدة تتجاوز بها القوالب المتخشبة المتعارف عليها، لتفتح تخوم المعرفة النقديّة على تجاذب مختلف التخصّصات وحبك آلياتها ومعارفها، مجذّرة خطاباً نقدياً لا يعترف بالحدود وإنّما يتجاور مع دراسات أدب-فلسفية برؤية نقدية ويتجاوز مضامين أطروحاتها المعرفية، خاصة لكون الأرضية الحداثية التي استقر عليها الفكر الغربي بقيت في حدود الإرجاء المتواصل لمشروعها الفكري، فهي لم تكتمل بعد حتى مع سيولة خطاب ما بعد الحداثة ودحضه للعديد من المسائل التي وقعت فيها الحداثة الصلبة.

وبما أنَّ العقل العربي بعد سنين طوال من سباته الفكري، استيقظ فيه الوعي بالنهوض والتجدّد، بعد انشداه عيونه إلى الحضارة الغربية، وكيف أسّست ذاتها وطوّرت من نمط حياتها الماديّ والفكريّ، مع أنها عانت الويلات من العصور الوسطى السوداء وسلطة الأنظمة القروسطية، لهذا اتخذ هو الآخر على عاتقه مهمة قلب المؤسسة التراثية ونماذجها، واتخاذ الآخر منفذاً للانعتاق من طوق الانغلاق. مع أنَّ الثورة الحداثية التي شهدها الغرب حاورت تاريخها وعادت بلهفة العارف إلى مدونات التراث استقصاءً واستقراءً له، وليس إقصاءً لنظرياته من أرشيفهم المعرفي، ببساطة نعترف أن العقل الغربي على الرغم من سقوطه الدائم حبيس توجه معيّن، إلاَّ أنّه يتمتع بشجاعة نقد ذاته، أو تفعيل معطيات نقد النقد لميراثه وفكره، وفي ظل التثاقف مع الآخر، هل استطاع عقلنا العربي أن يحاور تاريخه وينقد ذاته، وحتى حدثه الراهن بذكاء وموضوعية؟

لعلّ هذا الشغف بأكتشاف الآخر الغربي الغريب، تناولته المباحث الجزائريّة النقديّة وعمدت أيضا إلى تبني مختلف المقاربات النقديّة وتفعيل إجراءاتها وتنظيراتها على أعمال أدبية إبداعية، سواء اقتصر الأمر على النظريات الحداثية أو ما بعدها، على غرار دراسات المرحوم "عبد الملك مرتاض" في مختلف المناهج النقدية،

أو تطبيقات "عبد الحميد بورايو" المتواشجة مع روح النقد السياقي النصّي، أو حتى ما تثيره الناقدة "آمنة بلعلى" من إشكالات سيميائية تنفتح على آفاق التأويل.

لهذا ارتأت الدراسة السفر إلى مباحث خطاب ما بعد الحداثة في النقد الجزائري المعاصر، استنطاقاً لأهم المفاهيم التي أثرت على رؤاه المعرفية وغيّرت من نمط إدراكه للمعطيات القبلية أو حتى للمجتر المكرر الذي تشهده الكتابات النمطية الأكاديمية، وبالتالي يظعن الموضوع إلى تضاعيف مدونات الباحث الجزائري: محمّد شوقي الزيّن باعتبار منجزه الفكري ينبذ التقوقع في مسار واحد باسم التخصص لتنشرح أبحاثه على أكوان: التصوف/ العرفان، والتفكيك/ التأويل، والترجمة... وغير ذلك.

ونجنّد دراستنا بمجموعة من التساؤلات بمقاربة أركيولوجية تسعى لرصد الخلفية المعرفية التي أغدقت على مدوناته الفكرية بكتابة تنزح إلى المختلف والغريب والشاذ الخارج عن المألوف، ومن بين هذه الأسئلة ما يلي: ما هي أهم المقاربات النقديّة التي تداولها خطاب شوقي الزين؟ وكيف تم تلقي فكر الآخر في مدونته النقدية؟ وهل استطاعت أبحاثه أن تخلق فسحة للتوازن بين استيطيقا التلقي وايتيقا الاعتراف والتلاقي؟

رامين من خلال إثارة هذه التساؤلات إلى فتح منافذ البحث على مساحة يتنافذ فيها الأقنوم الثلاثي: من محبة التراث إلى إزاحة الخطابات الهوويّة أو النظرة الباتولوجية تجاه الآخر، ومن ثمّة إتاحة فرصة للحوار والسؤال النقدي الإبداعي الذاتي.

أولا/ ما بعد الحدث: رغبة العبث ورهبة النسق:

مع أن المشروع الحداثي خاض غمار الثورات العلمية وامتشق نور العقلانية مثوّراً به مقولاته العلمانية والعقلية، ومزيحاً المؤسسة الدينية من قلب الفكر الغربي ليشيّد محكمة العقل بدلا عنها، جاعلاً من العقل أسطورة زمنه ومتيحاً للأنا المفكرة التجبر والتطاول على الطبيعة والتحكم فيها، بالاستعانة بالتقنية التي غذت الصديق الحميم للإنسان الحداثي أو النسق الجديد الذي حبس أنفاسه وعكس الجانب الظلامي منه؛ بنزوعه منزعاً حيوانياً يتلذذ بالسيطرة والتقتيل، فطعّمت الحروب العالمية بأساليب الدمّار الوحشيّ، قاذفة بالشعوب إلى فضاءات التشيؤ والسير في قطعان تستهلك ما سُلّع لها من منتوجات ثقافية أو غيرها، دون وعي بسحر سطوة التقنية في حياتنا اليوميّة واستلابها لذواتنا، وفداحة الحدث الذي نعيشه وسخريّة التعايش معه، فانهارت الثقة في الحداثة وتم التسلح بنواميس الشّك لإعادة النظر في نخاريب المنجز الحداثي.

وبما أن كل بداية تحمل ميقاتا لنهايتها، كان لزاما على نهاية الحداثة أن تلج إلى مسلك جديد، وُسم بمرحلة ما بعد الحداثة، « postmodernity » وبالمقارنة مع المنجز الحداثي يمكن النظر إليها على أنها مسار تكميلي-كما عدّه البعض- للمشروع الذي ابتدأته الحداثة وليست قطيعة معه، وهذا ليس غريبا عن الفكر الغربي لأنه في عودة دائمة لماضيه محاورا خطابه، وسائلاً تاريخه وناقداً له. وتمكّنت حركة ما بعد الحداثة من تدمير السرديات الكبرى للحداثة والتشكيك في أهم مقولاتها المتمركزة من: عقل، وحضور، وهويّة، وحقيقة، لتعمد إلى تفكيكها والولوج بها إلى مدارات التعدد والتجدد، مزيحة الرؤية الكليانية القابعة في نظام ثابت.

لكن المريب في حركة ما بعد الحداثة أنّها تناقض نفسها بحدّة، خاصة عندما نسعى إلى الوقوف على مفهوم المصطلح، فيتبدى حيناً في حالة الاتصال والاستمرار لمشروع الحداثة وحيناً آخر يحمل النقيض بإحداثه لانفصال هستيري مع معطيات المنجز الحداثي ونسف مقولاته الفكريّة، فيشير "إيهاب حسن" إلى فكرة عدم قابلية المصطلح أساسا للتحديد والتوصيف، وفي ذلك يقول: "إنَّ كلمة ما بعد الحداثة « Postmodernism » لا تبدو مركبة وغير مألوفة فحسب، ولكنَّها تستدعي أيضا ما ترغب في تجاوزه أو قمعه، أي الحداثة نفسها. ينطوي المصطلح إذن على عدّوه بداخله خلافاً لمصطلحات مثل الكلاسيكية والباروك، والروكوكو. وهو يشير فضلاً عن ذلك إلى خطيّة زمنيّة ويوحي بالتأخر، بل والانحطاط، وهو ما لا يعترف به أيُّ ما بعد حداثي"[1]، ويضيف في هذه المسألة أن الخطاب الما بعد حداثي ينزح إلى "أشكال منفتحة، عابثة، دالة على التمني، مؤقتة (مفتوحة في الزمن كما في البنية أو الفضاء) منفصلة مفككة أو غير محدّدة، إنّها خطاب التهكم أو السخرية، والشظايا، "أيديولوجيا بيضاء" من الغياب والانكسارات، استدعاء أشكال الصمت المعقدة والمنطوقة"[2].

صحيح أن المفهوم الاصطلاحي والضبط المعرفي لهذا المصطلح تعرّض للّبس والغرابة نظراً لكونه ربما لازال يحيى في ظل "الفتوة النسبيّة أو المراهقة المندفعة والمتسرّعة، وقربه من مصطلحات أكثر رواجاً، تعاني بالمثل من عدم الاستقرار"[3]، لكن ما يسجل في الآثار التي تناسلت عنه من أفكار فلاسفة الاختلاف وغيرها، تُظهر ردّة الفعل العنيفة تجاه المباحث الحداثية، لاسيما أنه شن ثورة ضدّ العقل وهو معبود التوجهات الحداثيّة -إن صح لنا التعبير- لتفعّل ما بعد الحداثة خطاباً يندفع إلى أغوار (اللاعقل)، وذلك ليس بمعنى إقصاء العقل وإنما تحسس الوجه المظلم منه، فاستطاعت ما بعد الحداثة أن "تحاكم العقل بالمعنى الواقعي(quid facti) وليس حسب الحكم القانوني (quid juris)، أي أنّها تبحث في طبقات العقل عن مناطق معتمة هي وجهه اللامعقول وبربريته الدفينة"[4]، ويرى بعض الباحثين أنَّ التحول الجديد الذي احتفت به ما بعد الحداثة أسقطها في مدارات العبثية، فعلى الرغم من الجهود التي بذلتها لاصطلام تعاسة الذات من أسوار الخارج / الداخل من التجريبية إلى العقلانية، إلاَّ أنها صنعت لنفسها وهماً آخر بعد انتقالها من "النقيض إلى النقيض، من سجن العقل/ التجربة/ اللغة إلى سجن اللاعقل/ الشّك/ العدمية"[5].

عموما فإنَّ ما بعد الحداثة تثور على العديد من القواعد الحداثية وتقوّض نمطيّة البنية الهرميّة، منقضّة على غلو ثقافة التنظيم الثنائي المحبوك مع كل خيوط الفكر الإنساني، لتلتفت عيونها إلى الطرف الآخر من: الكتابة/ المرأة/ الأسود/ الغياب، بدلا من الانشداه المزمن للصوت/ الرجل/ الأبيض/ الحضور، على إثر ذلك نلفي "فاتيمو" يقول أنَّ ما بعد الحداثة "تستقي دلالتها من تحولين أساسيين، أولهما، نهاية السيطرة الأوروبيّة على العالم بأسره، وثانيهما تطوّر وسائل الإعلام التي أفسحت مجالاً للثقافات "المحليّة" ولثقافة الأقليّات."[6] ومع أنّنا ندرك جيّدا أن ترسّبات الفكر الكولونيالي الأوروبي لازالت تركد في ذهنيات المجتمعات المستعمَرة، وهو ما عرّته الدراسات الثقافيّة وجسّت نبضه المتحرّك والمتقنّع داخل الأعمال الثقافيّة الإبداعية، لكن صعود ثقافة

الهوامش وزحزحتها لصفائح المركز، -وهو ما أثارته بشدّة دراسات ما بعد الحداثة- ابتكر قيماً ثقافية جديدة تلتفت إلى ما تم تهميشه وإخراس صوته وقمع حضوره في التراث الغربي، ومنه نستطيع القول إن مفهوم ما بعد الحداثة "يستخدم نظرية للابتكار innovationوإعادة الابتكار renovation، والاستبدالnovation، أو ببساطة التغيير."[7] وهذا لا يعني أنه قد تم استدعاء نسق جديد مغاير لما سبقه، ويماثله من منظور فعل الحضور والسيطرة. فعندما نتأمل مليّا طروحات ما بعد الحداثة خاصّة ما تعلق بتفكيك "ديريدا" ستتّضح صورة انتفاء المركز تماما والايمان المطلق بالتشظي والتشتت، فهو لا يعلي من قيمة شق على شقٍ آخر، وإنما تتشاجر كلا الثنائيتين وتتشابك مشرّعة أبوابها على استقبال انشطارات وانشقاقات أخرى، لتمحو كل وحدة ثابتة.

تتجلّى في كثير من الدراسات ما بعد الحداثة كوجهي جانوس*؛ بحملها نظرة ازدواجية في تعاملها مع الفكر الغربي، من استقطاب لنظرياته وإجراءاته المتعارف عليها ثم هدمها من الداخل، متلبسة وجهي كل من الإله "أبولون" و"ديونيزيوس"، وقد سمح هذا الاختلاف بخلق التوازن في آرائها الفكريّة، "فباستدعائها إلهين معا، تستخدم رؤية مزدوجة. إن التماثل والاختلاف، الوَحدَة والقطيعة، والتمرد ينبغي تقديرها إذا ما تعين علينا الالتزام بالتاريخ، أن نكون على وعي (ندرك، نفهم) بالتغيير، بوصفة بنية فضائية ذهنية وعملية زمنية فيزيقية معاً؛ بوصفه نمطاً وحدثاً فريداً في ذات الوقت."[8]

ومما لا شك فيه أنه لطالما طُعّمت الممارسة النقدية بتحوّلات الخطابات الفلسفية، وهذا ما شهدناه مثلا مع "البنيوية"؛ الابنة البارة لمسيرة الحداثة بتقاطعها مع الفلسفات العقلانية وتواشجها مع المناحي التجريبية للفلسفة الوضعية، وحتى تحليلاتها المتماثلة مع التحليل المنطقي الرياضي بعد أن وجدت فيه ضالتها لمفهوم البناء، كذلك ينهل التفكيك -بما أنه الواجهة الأساسية لما بعد الحداثة- من الفلسفات التي أثّرت عليه وأثْرت مقولاته النقدية، خاصة ما تعلّق بجينالوجيا نيتشه التي يمكن عدّها الخليّة الجامعة لنواميس خطاب الما بعد، بتأثيرها في فلسفة "هيدجر" و"فوكو" و"جيل دولوز" وحتى تفكيك "ديريدا"، الذي عكف على "إعادة قراءة مقولات الأصل والمثال في تجويف المؤسّسات الاجتماعية والدينية والخطاب التاريخي والفلسفي، بأسلوب فذّ وكتابة مختلفة؛ منطلقا من أكثر من زاوية ومشتغلا على أكثر من موقع، متدرّجا بين السياسة والفلسفة واللاّهوت." [9]

فالتفكيك الديريدي يحمل أنفاس التشكيك النيتشوي، هذا الأخير الذي يعدّ الأب الروحي لما بعد الحداثة، بتحريضه فلاسفة الاختلاف على تفجير النصوص من الداخل وتدمير استبداد المركزيات وتحطيم أصنام الحضارة الأوروبية ودقّ نواقيس العدميّة، بعد أن كشفت مدوناته بلغة فلسفية-شعريّة عن المراجعة الجذريّة للميراث الفلسفي النقدي الغربي، ناقدا لتراث هذه الحضارة وممدّما بمطارقه ميتافيزيقا الحضور من "أفلاطون" حتى "كانط"، محرّراً العقل من وهم الحقيقة، ومن هنا يمكن القول إن "الصلة بين نيتشه وما بعد الحداثة تتجاوز ذلك كله، إلى ما هو أعمق وأبعد ، وهي تكمن تحديدا في المقطع "ما بعد... Post". فـ "ما بعد" ليس في واقع الأمر سوى المذهب الذي بحث عنه و"اعتنقه" نيتشه تجاه كل التراث الفلسفي الغربي."[10]

بهذا المعنى يحيى خطاب "الما بعد" على ترسبات النيتشوية ويلاحظ ذلك حتى مع كتابة بعض فلاسفة الاختلاف المعقّدة والعصيّة على النوال؛ بمزجها روح الشعر والبلاغة مع النصوص الفلسفية والحدوس العرفانية، وهو ما يطلق عليه "الكتابة الباروكية" التي تخلق في النصوص نوعا من المساريب المتموجة والأساليب المحفوفة بالمجاز، والغاّصة في البيان والنحت اللّغوي كما عودنا جاك ديريدا مع مصطلحاته المنحوتة، وأحيانا تسري في إبداعاتهم الكتابة الشذرية التي تعود هي الأخرى إلى الأكوان النيتشوية، وهذا الأسلوب الكتابي هو ما سبب ضربة موجعة للمعمار البنيوي، كونه انتشل الدال من تبعيته المطلقة للمدلول وحرّره من التطابق والوحدة التي كانت تجمعه به. فكتابته تحترف هدم هيمنة النسق العقلاني وتنحرف إلى خلق مسارب التأويل اللانهائي، مزيحة أوهام الفلسفة الميتافيزيقية فلا حقيقة مع نيتشه وإنما كل شيء رهين التأويلات.

إنَّ النص الجينالوجي الذي ابتكره نيتشه كان بمثابة شرخ عميق داخل بنيان الخطاب الميتافيزيقي، وكلّما استغرق بمطرقته في هدم أنساقه البرهانية ومحقها بلغة عرفانية-مجازية، تآكل البنيان من الداخل وتفتتت معالمه، لتحل محلّه حروف سائلة ترتحل بين مختلف الخطابات (الفلسفية، الأدبية، الفنية...) مبتكرة نصوصا مطاطية، مائعة، تتذبذب بين فلسفة الفرح، والسخريّة والتهكم، وكل خطوة لها تهدف لهدم غطرسة اللوغوس في الخطاب الميتافيزيقي.

تركت هذه الاستراتيجية في الكتابة بصمتها في كتابات الخلف من فلاسفة الاختلاف، ليواصلوا السير على منوال ديونيسوس الراقص(نيتشه)، بتحليل جينيالوجي وقراءة أركيولوجية استهدفت الطبقات المتمركزة كدوغم في الثقافة الغربية، وعن طريق الولوج إلى أقاليمها الفكريّة وتحسس أخاديدها الهرمة تمَّ تفجير أنساقها البديهيّة وأصولياتها المثالية المتجمّدة من الداخل.

ما يهمنا بعد هذه التوطئة المعرفية، هو رصد بعض الخطابات النقديّة الجزائرية التي استلهمت روح النصوص الجينالوجية، بل استطاعت أن تبدع خطاباً يقاوم النمطيّة، خاصّة أن السّاحة الفكريّة في الجزائر تشهد حركة تثوير في أساليبها الإبداعية النقديّة، بعد مسيرة من التحوّلات التي مكّنتها من أن تؤسس خطابا نقدياً له قواعده العلميّة وليس مجرد رؤية هوويّة تغيب عنها المقاييس المنهجيّة المتواشجة مع روح الإبداع.

ثانيا/ الحداثة التأويلية ومنطق الإزاحة:

تأتي نصوص الفيلسوف والناقد الجزائري محمّد شوقي الزّين متلبسة بأشباح السائر الجريح "ميشال دو سارتو" وتفكيكيّة "جاك ديريدا" إلى جوار أكبريّة الصوفي "محيي الدين ابن عربي"، وغير ذلك من المفكّرين الذين عرّف بنتاجاتهم المعرفيّة واستنطق خفايا ما اندّس بين تلافيف فصوصهم وفصولهم الفكريّة، فالأطروحات الشوقيّة-نسبة إلى شوقي الزين- تحمل ثراءً عرفانياً طافحاً بالقراءات الحصيفة والرؤية النقديّة الفاحصة لأهم التحوّلات الكبرى في التاريخ الإنساني، وهذا ما دعاه إلى الحديث عن أبجديات الثقافة الجزائريّة وجسّ نبض أرضيّة المثقّف الجزائري مستعرضاً المشاكل الوجودية التي تعصف به، ومُدينا تصورات المثقف النخبوي الذي يدّعي امتلاك الحقيقة والتجبّر بمشاريعه الفكريّة وتصنيم معارفه، فرهان شوقي الزين تمثّل إذا في إزاحة أوهام

العقلية النخبوية الاستعلائية وخطابات تسييس الثقافة، ليبسط أطروحات المثقف الناقد الذي يتمتع بعقل تداولي يساهم في "إزاحة أطره الفكرية الجامدة ومجاوزة نخبويته العقيمة فضلا عن مجابهة الوقائع بفهمها وتشخيصها وليس بنفيها أو غض الطرف عنها. هذا الفعل التواصلي يتيح للمثقف النقدي الإقبال على موضوعاته المعرفية بمرح فكري وعقل مفتوح فيتجنب الإحباطات أو الصدمات من جراء دوغمائية التطابق أو عقم التطبيق."[11]

إنَّ منطق الإزاحة الذي استثمره شوقي الزين في قراءة الخطابات الفكريّة؛ سواء ما تعلق بالثقافة الجزائريّة أو المعرفة الإنسانية، منحه إمكانيّة القراءة الباطنيّة للخطابات التي ترسّخ فكرا دوغمائياً نرجسياً يستبد بمقولاته الصلبة، ليعمد إلى خلخلة معمارها الثابت والمثبّط لحركة التثوير أو التنوير، فالإزاحة التي مارسها استطاعت أن تلج إلى البنى الجيولوجية للنصوص أو ما هو متوار في غور النص من مسلمات سلطويّة، لتكشف دسائس النواميس البطريركية (الأبوية) المتحكّمة في الجحافل البشريّة كدمى الأراجوز، دون تنشيط وعي لاختراق معمار المعطيات التلقينية التي غدت حقيقة يقينية متجذرة، وفي هذا الصدد يقول: " تأسيساتنا جرى اعتمادها خارج الوعي المتعقل للحظة الراهنة انبنت على الوشم والفصم واعتلت الآفاق فوق عنف النزاع والتصفية وإرهاب الانتزاع والتعرية(...) هذا المشهد الدوغمائي والأيديولوجي أصبح فجّا وصلبا ويزداد صلابة بتصلّب الأفكار والمواقف ومن فرط التأسيسات المتوالية التي تتركب فوق بعضها مشكلة بذلك بناءا صارما وفجا وفي الوقت ذاته هشا وساذجا. من هنا كانت أولوية الإزاحة هي تحريك هذه التأسيسات بنقدها وعزل عناصرها أو بقلبها وتفكيكها."[12]

نصبو في مقامنا هذا إلى التعويل على مفهومي التفكيك والتأويل المتضافرين مع الحركات التكتيكية لخطابات الإزاحة، بحيث يتماثل فعل الإزاحة الذي يقصد به" العملية الفكرية التي تلي "الاختراق" وتسبق "المجاوزة" إنها نتاج اختراق طبقات الثقافة والتاريخ والذاكرة بالعمل على تحريك أرضيتها الصلبة وتحويل موادها الفكرية ومعارفها الأصلية وهي تمهيد لمجاوزة نقدية تفتح الآفاق بقدر ما تجدّد الأعماق وتبدّد الأوهام بقدر ما تستأصل الأورام."[13] ويتماثل منطق الإزاحة مع الفعاليات الحيوية للتأويل والتفكيك من منطلق الاستغراق في باطن النصوص وتحريك المسلمات الراسخة والثقافة المؤدلجة والقوالب الثابتة التي هي أساسا تعاني من فواجع الخرم، وبما أن مفردة "الإزاحة" تستقي دلالاتها من الدراسات الجيولوجية تتماثل مع ممارسة التأويل والتفكيك، نظرا لأنهما "صفيحتان لا تنفكان عن الاحتكاك في سبيل زلزلة البداهات أو تقويض السلطات، أي ابتكار الإمكانات وخلق المكانات."[14] وعليه، تقترن إجراءات الإزاحة باعتبارها عملية تحريك البنى الراسخة مع الهزّات التي تفتعلها الممارسة التفكيكية في سبيل تقويض الأنظمة الكليانية وتبديد الأنساق السلطوية الموهومة بمركزيتها في الثقافات الإنسانية.

هذا ما دفع بشوقي الزين إلى الحديث عن الحداثة التأويلية كمنفذ لتجاوز جماد الأساطير العقيمة المتفلجة من لدن الفكر الحداثي مرسّية طبقات ثخينة من الأفكار النمطية غير القابلة لممارسات التواصل والحوار، لكن ما

ميّز الحداثة التأويلية من استهجان بؤس الحداثة ومنظومتها القابعة في سجن الأساطير العقلانية وسراب الإنسان الحداثي، هو الرؤية المحايثة بدلا عن شعارات التعالي بحيث سمحت "بإقحام أسلوب الخطابة ومنطق المجاز دون الوقوع في شراك الثنائيات الزائفة. إنّها حداثة تتجاوز ذاتها وإطارها التاريخاني والعلموي بلعبة التأويل كخطابة ومجاز أو إمكان وتجاوز(...) فالحداثة التأويلية هي العمل الفكري أو الممارسة الخطابية التي تقارب بين انتمائنا لتاريخينا وتراثنا ومسافتنا النقدية تجاه هذا الانتماء، أي أمل وعمل أو انوجاد وانتقاد أو انتماء وتجاوز"[15]

ثالثا/ سؤال العقل والعقل المضاد:

تكوثرت في أعمال فيلسوفنا الناقد المضامين البرهانية والعرفانية على حدٍّ سواء، بحيث تظعن مدوناته إلى الأرضية الأرسطية والرواقية؛ معرّفاً بالوجهة المتعالية للنظام الفلسفي الكلاسيكي الغربي وحتى رؤى الفكر الفلسفي المعاصر الذي اتخذ وجهة محايثة تستدعي خطابا يفيض بالأحابيل المجازية، عكس التوجه البرهاني الذي صنع خطابا يقوم على التأسيسات المنطقية العقلانية، لذلك لا يتورّع شوقي الزين عن استحضار كلا التوجهين مشيرا إلى أهم الحيثيات التي استثمرها الدرس الفلسفي الغربي الكلاسيكي أو المعاصر. ومن أكثر المواضيع التي تضمنها خطابه، تحليله لمقولة "العقل المضاد" باعتباره فعل إزاحة لسلطة اللوغوس.

ترجع نصوص العقل المضاد إلى الممارسة التفكيكية التي أضاءت الجانب الآخر من العقل، هذا الأخير الذي تحولت سلطته إلى عقال لجمه عن إدراك ما يُضمر تحت تربته من تفكير مغاير لمنطقه البرهاني، وما يكتنزه من سم زعاف سمّم التفكير برؤية أحادية دائمة الانصياع إلى وهم الثنائيات وهرم التراتبيات.

يكشف الحفر اللّغوي في مفردة "اللاعقل" عن الهالة المقدسة التي نسجها العقل حول نفسه، فأوقعته في خديعة النرجسية المطلقة وإقصاء الآخر، إذ "يأتي الخطاب من الأعماق النرجسية للعقل بالمقولة "تعال" (Viens) ! وفي هذه المفردة هناك الآتي، المستقبل، (à venir). تعبّر المفردة العربية بشكل بلاغي عن هذا الإتيان: "تعالَ"، نوع من الإغراء في إشباع الغريزة النرجسية للعقل، نوع من الإغواء في السقوط في الشَرك، في المكر"[16] ومنه، سعى ديريدا إلى تفكيك مركزية العقل واجتثاث المباحث المطموسة في بواده اللاعقل، وهو ما تم تسميته بالعقل المضاد عند شوقي الزين، المتماثل مع حفريات "ميشال فوكو" المتعلقة بالنبش في الزاوية المحجبة من العقل وهو "الجنون"، فبعد تقويضه للمؤسسة الطبنفسية والكشف عن آليات القهر والتعذيب التي مورست على المرضى، استجلى الشق المنسي من المنظومة العقلية وهو الجنون، كذلك يفعل ديريدا عندما يعرّي الجانب الآخر من العقل باحثاً في دهاليزه عن الطاقات المهمشة من العوالم البلاغية والأكوان اللاواعية الخفية عن منطق العقل، وهو بتناوله هذه المباحث لا يقصي العقل بقدر ما يشير إلى التضايف الذي يجمع بين العقل المضاد والعقل المنطقي.

رابعا/ الحوار التداولي وايتيقا الاعتراف الانساني:

لاريب أن أطروحات شوقي الزين الفكرية قد خاضت في العديد من المباحث الفلسفية- النقدية التي تمكنت من تقديم مفاهيم جديدة تضعنا على شرفات الحدث الراهن، من منطلق تنظيراتها الجادّة حول مباحث

فيلسوف معين أو اقتحامها لإقليم معرفي مختلف بغض النظر إن كان كلاسيكيا أو عصريا، فالغاية من خطابه هي الرؤية المغايرة للمعهود المتعارف عليه، وحتى الاشتغال على النصوص المطعمة بغرائبية الكتابة الباروكية مسّ الحقول الوعرة في الثقافة العربية والغربية معا. فقد تم فتح مغالق المتن الصوفي "لابن عربي" عن طريق الاهتداء بالمقاربات التداولية والهرمينوطيقية من أجل تفعيل قراءة تستهدف البنى الكتابية المعقدة التي ميّزت مقولات ابن عربي في تأويله الصوفي للقرآن الكريم، لذلك تفرّدت قراءات محمد شوقي الزين برؤية ثاقبة تبصّرت في النصوص المتشعبة لابن عربي المعرفية والروحية ولهذا لم تكن قراءاته "قراءة تعسفية بإسقاط مقولات أو مفاهيم، شرقية أو غربية، قديمة أو معاصرة، على هذا المتن، فهي ليست أيضا قراءة حرفية وعنيدة، تلتزم بشكل عصابي بهذا المتن، وتقتفي أثره حرفا حرفاً، كلمة كلمةً، جملة جملة، فقرة فقرة، إلى درجة التقليد(imitation) المجحف والكاريكاتوري."[17] هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى وضّح خطاب شوقي الزين تعرجات الباروك المستحوذة على التصورات العرفانية، مستضيفا صاحب حكاية المكنون؛ "ميشال دو سارتو" لتكون بعض من أعماله ثمرة القراءات الجادّة لهذا الفيلسوف الذي طاله التهميش في ثقافتنا العربية، كاشفا عن القضايا الكبرى في سفره العرفاني ومعرّفاً بخلفيته المعرفيّة المرتحلة إلى تضاريس الفكر التاريخي والأنثروبولوجي وحتى عنايته بفلسفة اليومي، ونقده لتصورات الحياة اليومية، كما أنه خاض في التجربة الروحية للكنان بعبوره إلى أكوان العرفان المسيحي.

ويرى "إيريك مغري" أنَّ نقد ميشال دو سارتو يتميّز "بالثراء والنوعية، وبتبعثره أيضا لأنه يعتني بحقول عدّة: إبستمولوجيا العلوم الاجتماعية، تاريخ المعتقدات، العرفان، الكتاب، الممارسات الثقافية المعاصرة، وسائل الإعلام الشعبية، التكنولوجيات الحديثة للاتّصال، الإدراك المعرفي. فهو يرسم ملامح شخص معروف ولكنه متبعثر وربّما أيضا ممزّق بين ميادين عديدة وتوجّهات علمية"[18] إلاَّ أنَّ القراءة الشوقيّة تكشف عن النسق المفتوح في كتابات دو سارتو، الجافلة من الثبات في حقل معرفي معيّن إذ تبتغي الارتحال إلى ميادين مختلفة ممتثلة إلى خطاب الإزاحة واستحالة التحديد والتصنيف، فأطروحاته "مبنية على مسلمة الوحدة الجوهرية، من حيث الصرامة المفهومية، وعلى الاتّصال وراء الانفصال، وعلى الانفصال وراء الاتصال وهي قيم تاريخية وبنيوية تبرز استدامة القديم في الحديث، وحلول الغيرية في الهوية".[19]

وبين التصوف الإسلامي والعرفان المسيحي ابتكر مشروع شوقي الزين كتابة جديدة تمزج بين الفكر الفلسفي والمجاز البلاغي، بلغة عذبة تمكنت من أن تنحو منحى تعليمياً على الرغم من متانة الطرح الفلسفي النقدي، فخطابه يتغذى على أساليب الفقه اللغوي؛ التي تشتغل على التنقيب في المعاجم العربية وتوليد الاشتقاقات الخاصة بالمفردات التي استعملها لاقتفاء مفهوم معين في الثقافة الإنسانية، بالإضافة إلى الاستعانة بالنحت اللّغوي الذي منح لغة فيلسوفنا الناقد وفرة في استجلاء المصطلحات الجديدة وشحذها بأساليب السجع البلاغي، سواء في المتن النصي أو على عتبة مدوناته على غرار العناوين التالية: "ميشال دو سارتو: منطق الممارسات وذكاء الاستعمالات"، "الثقاف في الأزمنة العجاف"، "الغسق والنسق"، فلا ريب إذن أن

تتفرّد نصوصه عن الدراسات النقدية الفلسفية التي هي عادة محصّنة ببناء نسقي من المصطلحات المجرّدة المقصية للانزياحات الأسلوبية.

هنا يتلاقى شوقي الزين مع حركة النص الجينالوجي المتمفصل عن مفاهيم الوحدة والتطابق، ويستحضر أيضا التجربة الباروكية المتلاحمة مع صوفية "ابن عربي" و"ابن سبعين" وعرفانية "ميشال دو سارتو" وحتى مع تفكيكية "جاك ديريدا"، إنَّ هذا التلاقي المعرفي الذي ميّز أطروحاته خلق فضاء التلاقي الجمالي مع الآخر واستضافته بدلا من تحقيره أو تعظيمه، وهذا ما استدعى ابتكار خطاب يميل إلى تبادل الحوار النقدي مع الآخر دون الانزواء في القوالب الجوفاء.

الخاتمة:

بعد هذه الفسحة المعرفية في مدونات الباحث الجزائري "محمد شوقي الزين" والاطلاع على بعض منجزاته الفكرية وطريقة نسجه للمعرفة الإنسانية، بات لزاما على هذه الدراسة أن ترصد أهم المحطات التي تم الوقوف عندها وهي كالتالي:

- تمكنت حركة ما بعد الحداثة من أن تخوض ثورة ضد أشكال النسق الحداثي محطمة مفهوم الوحدة والتطابق، ومنشرحة على عوالم الكتابة الأدب- فلسفية.
- إن التلقي الجزائري لثقافة الآخر الغربي لم يبق في حدود الانقياد الأعمى لمنتوجاته الثقافية، بل استطاع الفكر أن يتسلح برؤية متوازنة في التعامل مع هذه الغيرية، من غير نفي الآخر أو التقوقع داخل نتاجه الفكري.
- استثمر مشروع شوقي الزين الفلسفي- النقدي المقاربات الغربية في قراءة متون النصوص العربية، وتمكن من تطوير آلياته الفكرية في دراسة الخطابات الصوفية والعرفانية.
- امتدت دراسات شوقي الزين إلى زحزحة الترسبات القارة في الثقافة الجزائرية، بتجاوز نمطية الأفكار المؤدلجة وتوقيع كتابة تنزح إلى أكوان الباروك وفيض اللغة الجمالية، بعقل حواري مهموم بتفجير السؤال والحفر في بطانة النصوص العربية والغربية.

ومن بين الاقتراحات التي يمكن أن تقدم في هذه الدراسة: استثمار مشروع شوقي الزين للخوض في مسائل تخص الثقافة الجزائرية وكيفية امتهان تجربة الخوض في مساءلة الفكر النقدي، فقبل أن تكون أطروحات ناقدنا تخص الفلسفة أو النقد أو حتى التصوف، هي أولى بالفكر الذي يسأل بعيداً عن القوالب الجامدة المعدّة له سلفاً، والتي تراود جواباً جاهزاً وناجزاً قد طاله التلقين.

هوامش:

[1]إيهاب حسن،2018، تحولات الخطاب النقدي لما بعد الحداثة، ترجمة، السيد إمام، ط، 01، بيروت، دار الرافدين، ص: 10.

[2]المرجع نفسه، ص: 22.

[3]المرجع نفسه، ص: 10.

[4]محمد شوقي الزين،2012، الذات والآخر تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع، ط01، لبنان، الجزائر، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، ص:34.

[5]عبد الغني بارة،2005، إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، مقاربة حوارية في الأصول المعرفية، ط01، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص: 121.

[6]إيهاب حسن، المرجع نفسه، ص: 38.

[7]المرجع نفسه، ص: 14.

*وجهي جانوس: كناية عن ميثولوجيا الاله "جانوس" الحامل لوجهين متناقضين.

[8]المرجع نفسه، ص: 12.

[9]محمد بكاي، 2022، مديح الاختلاف دراسات في فلسفة الكتابة وسياسات الهوية، ط01، لبنان، دار الروافد الثقافية، ص: 143.

[10]أحمد عبد الحليم عطية،2010، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، ط01، لبنان، دار الفرابي، ص: 124.

[11]محمد شوقي الزين، 2005، إزاحات فكرية مقاربات في الحداثة والمثقف، ط01، الجزائر، منشورات الاختلاف، ص: 116.

[12]المصدر نفسه، ص: 11.

[13]المصدر نفسه، ص: 11.

[14] محمد شوقي الزين، 2008، الإزاحة والاحتمال صفائح نقدية في الفلسفة الغربية، ط01، لبنان، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ص: 10.

[15]محمد شوقي الزين، إزاحات فكرية مقاربات في الحداثة والمثقف، ص: 37.

[16]محمد شوقي الزين، المصدر نفسه، ص: 311-312.

[17]محمد شوقي الزين، 2016، الصورة واللغز، التأويل الصوفي للقرآن عند محيي الدين بن عربي، ط01، المغرب، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ص: 14.

[18]نقلا عن: محمد شوقي الزين،2013، منطق الممارسات وذكاء الاستعمالات، مدخل إلى قراءة تداولية، ط01، لبنان، دار الروافد الثقافية، ص: 14.

[19] محمد شوقي الزين، المصدر نفسه، ص: 15.

قائمة المراجع:

1- أحمد عبد الحليم عطية،2010، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، ط01، لبنان، دار الفرابي.

2- إيهاب حسن،2018، تحولات الخطاب النقدي لما بعد الحداثة، ترجمة، السيد إمام، ط، 01، بيروت، دار الرافدين.
3- عبد الغني بارة،2005، إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، مقاربة حوارية في الأصول المعرفية، ط01، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
4- محمد بكاي، 2022، مديح الاختلاف دراسات في فلسفة الكتابة وسياسات الهوية، ط01، لبنان، دار الروافد الثقافية.
5- محمد شوقي الزين،2012، الذات والآخر تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع، ط01، لبنان، الجزائر، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف.
6- محمد شوقي الزين، 2008، الإزاحة والاحتمال صفائح نقدية في الفلسفة الغربية، ط01، لبنان، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف.
7- محمد شوقي الزين، 2016، الصورة واللغز، التأويل الصوفي للقرآن عند محيي الدين بن عربي، ط01، المغرب، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.
8- محمد شوقي الزين، 2005، إزاحات فكرية مقاربات في الحداثة والمثقف، ط01، الجزائر، منشورات الاختلاف.
9- محمد شوقي الزين،2013، منطق الممارسات وذكاء الاستعمالات، مدخل إلى قراءة تداولية، ط01، لبنان، دار الروافد الثقافية.